الباب السابع

في الكوفة

"يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود في العراق ذراعا"

ابن شهاب الزهري

obeikandl.com

اعتزت الكوفة بذاتها كما اعتزت برجالاتها. كانت لا تزال تذكر أيام جعلها أمير المؤمنين علي قصبة الخلافة، وتذكر عبد الله بن مسعود. وناهيك بابن أبي طالب وابن مسعود من رجلين ومن عالمين.

كان عمر يسأل عن مسألة فيقول: اتبعوني. فيذهب إلى علي. فإذا قال له علي: ألا أرسلت إلي؟ قال عمر: "إني أحق بإتيانك". ويقول له عمر وهو يستشير الصحابة: "أنت أعلمهم وأفضلهم". بل كان عمر يتعوذ من معضلة ليس أبو حسن لها (علي).

وكان ابن مسعود أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله. كان له مصحف من جمعه تعصب له أهل الكوفة لا يقبلون مصحفا دونه حتى ذاع المصحف العثماني.

ولما قدم أهل الكوفة على عمر فأجازهم وفضل أهل الشام عليهم قالوا: يا أمير المؤمنين تفضل أهل الشام علينا؟ قال: "يا أهل الكوفة. أجزعتم أن فضلت عليكم أهل الشام. وقد آثرتكم بابن أم عبد (ابن مسعود)". ولما قدم على الكوفة قالوا عن ابن مسعود مار أينا أحسن منه خلقا ولا أرق منه ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعا. قال علي: "ناشدتكم الله. إنه الصدق من قلوبكم". قالوا: "نعم". قال: "أشهدك اللهم أني أقول فيه مثلما قالوا وأفضل، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه. فقيه الدنيا عالم في السنة".

وترسم خطى ابن مسعود فحول يتصدرهم علقمة النخعي وكان أشبه الناس به. وتلاهم أفذاذ في طليعتهم إبراهيم النخعي فكان يفتي وينبسط للفتوى ولا يخاف إبداء الرأي. ثم جاء حماد بن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة وراوية إبراهيم، وكانت معارك العلم بين الشيعة والخوارج وبين الأمويين والعلويين قد خلفت في الفقه آثار كالجراح، إذ أخذ الشيعة يصطنعون الأحاديث لنصرة علي، وأخذ خصومهم يختلقونها لنصرة مخالفيه: أبي بكر مرة، وطلحة والزبير مرة، وبني أمية مرات.

كما أخذ أنصار بني أمية يختلقونها ضد العباسيين، وأنصار بني العباس يختلقونها ضد العلويين وضد الأمويين، حتى قيل في زمن متأخر إن الجاحظ أوتي عشرة آلاف على أن يصنع أحاديث في مقتل علي، وتدخلت أطراف أخرى في النزاع. المعتزلة وغيرهم يختلقون ضد الخوارج ويختلق الخوارج ضدهم وضد السابقين جميعا، كما دس خصوم الإسلام أحاديث كثيرة على النبي، ثم تطورت أسباب الاختلاق فلم تبق مقصورة على الدافع السياسي أو الديني، بل نجم المال والملق بين الأسباب، فأصبحت الأحاديث تختلق للخلفاء وللأفراد ولكل شئ. فتسمع أحاديث عن تطيير الحمام وعن التمر والعجوة.

وكما أصاب التزييف الروايات أصاب الرواة.

وانتهى الأمر بالوضاعين إلى أن أصبحوا يسبكون الأحاديث كما ينظم القريض ولنفس الأسباب! في المدح والقدح، والترغيب والترهيب، وفي صياغة الفلسفة والحكمة.

بل بلغ الأمر بأحد الوضاعين في زمن لاحق أن يقول إنه يصنع الأحاديث "حسبة لوجه الله تعالى"! فلما سئل أبو عصمة نوح بن مريم الجامع (مات سنة ١٧٣) عن سبب وضعه لأحاديث فضائل سور القرآن قال: "رأيت الناس تحولوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحق فوضعتها حسبة"!

وساعد بعد العراق عن مهبط الحديث في الحجاز، حيث صحابة الرسول الذين عاشوا إلى نهاية القرن، كما ساعدت شدة الحاجة إلى النصوص لحل المشاكل، على هذا التفريخ العجيب للأحاديث. حتى ليروى عن الزهري أحد مفاخر المدينة أنه قال عن أهل العراق: "يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود إلى العراق ذراعا".

حدث ابن ماجه عن رسول الله: "ما قيل من قول حسن فأنا قلته"، فلينسب الوضاعون إذن كل الأقوال الحسنة إلى الرسول! ذلك ما عبر عنه أحد المستشرقين تعبيرا غريبا بقوله: "إنهم يضعون أوراقهم على المائدة ولسان حالهم يقول: هذا حق، ولا مأخذ عليه من ناحية الدين، بل هو مستحب والنبي كان يوافق عليه".

تفرق الصحابة في الأمصار بعد وفاة النبي، واشتجرت الآراء بينهم في الفتاوى تبعا لمبلغ علمهم بالأحاديث والسنن وإقبالهم على إبداء الرأي وتأثير البلدان التي استوطنوها في آرائهم وتقليدهم، ومن ثم جاءت خلافات المدينة من ناحية وسائر الأمصار في النواحي الأخرى وبخاصة الكوفة. إذ لم يكن مستطاعا أن تكون السنة معلومة لأهل تلك الأقطار النائية علمها لأهل المدينة، وقد شاهدوها وشاركوا في تطبيقها جيلا بعد جيل.

وكان أهل تلك الأمصار ملايين على حين كان أهل المدينة آلافا.

ولم تصل السنة إلى الأمصار إلا على مهل، فلم تظهر في الحياة العامة في العراق إلا في سنة ١٩٠. بل في سجستان – في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع – كان الزواج يعقد في أوضاع تخالف السنة حتى طبقها الاصطخري قاضي "قم". وفي خراسان كان ظهورها على يد عالم لغوي هو النضر بن شميل ضيعه قومه فخرج من البصرة يلتمس الرزق فشيعه ثلاثة آلاف من المحدثين والنحويين والعروضيين واللغويين، فلما اجتمعوا قال: "يعز علي فراقكم، والله

لو وجدت كل يوم كيلجة باقي (مكيال فول) ما فارقتكم"، فلم يتكلف له ذلك أحد من سامعيه ومودعيه!! وسار حتى وصل إلى مرو في خراسان حيث جالس المأمون في إقامته بمرو وعليه خلقان، فأجيز بثمانين ألف درهم لتصحيحه حديثا واحدا في مجلسه.

ولم تكن السنن في كتاب ذي مناهج بعرف الناس نصوصه ومدى تطبيقه، ولا كان الولاة يعنون بتعليمهم. بل إن الولاة كانوا في شغل بالدنيا عن الدين.

كان بنو أمية ملوكا دنيويين لا خلفاء دينيين. اعترض أبو الدرداء على رأس البيت الأموي معاوية، ليبعه سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ذهبا. قال: سمعت رسول الله ينهي عن مثل ذلك. قال معاوية: "ما أرى بهذا بأسا". قال أبو الدرداء: "من يعذرني من معاوية، أخبره عن رسول الله ويخبرني عن رأيه. لا أساكنك أرضا".

أفيقبل فقهاء الكوفة هذه الفوضى المخربة دون أن يخترقوا ظلامها بسهام من النور! لقد كان ابن مسعود زعيمهم نزاعا للنظر في المصالح وتعقل النصوص يزدري الإمعات الطائعة ويقول: "اغد عالما أو متعلما ولا تغد إمعة فيما بين ذلك". فالاستقلال والاجتهاد في الفقه ميراث أهل الكوفة يتوارثونه كابرا عن كابر.

ففيم الخضوع للمسلمات إذا لم يؤيدها الدليل الناهض؟ وإذا سيقت الفكرة ففيم ينحني المفكر أمام المفكر! وإذا ورد النص فما الدليل على النص؟ وإذا سيق الحديث فمن رواة الحديث؟ وإذا انفتح الباب للبحث عن الرواة، كان لزاما أن يسير الباحث إلى النهاية، فيدرس الراوية مثلما يدرس الرواية.

وهذا الفقيه الذي أتيحت له حقبة نادرة من حقب التاريخ ليرى أحداث الدولتين الأموية والعباسية الكبرى، وتجري بين يديه التيارات الفكرية الخطيرة في تاريخ الحضارة الإسلامية وهو عاكف على تلاميذه يسبح سبحاته معهم في آفاق هذا الكون الحافل، حيث كل شئ حائل ومتنقل إلا هؤلاء، الثابتين الصادفين عن أسباب الشحناء والسخائم، يجودون بنشاط جسمي وفكري عجيب، تشحذ عزائمهم الأحداث الرائعة المحيطة. فليستجب هو وتلاميذه إلى الصوت الذي لا يخفت في ضجة المذابح وفوضى التخليط، والذي يهيب بالمؤمنين أن ضعوا حدا للفوضى. وارسوا على الطبيعة الخطوط الكبرى للنظام. والخطوط التفصيلية للقواعد التي يتطلبها عالم تترامى أطرافه بين الصين والمحيط الأطلسي، فلم تعد جزيرة العرب إلا نواة أو مركزا للدائرة.

وإذا كان جواب الدولة العباسية الجديدة في عالم السياسة هو الحضارة الفكرية، فلقد كان جواب المدرسة الجديدة في عالم التشريع هو فقه أبي حنيفة القائم على الاجتهاد وعلى التحري الدقيق للروايات. فليناقش كل شئ حتى لا تذيع الآراء الزافة وتذهب قواعد البنيان التشريعي الذي تأوى إليه الحضارة.

* * *

أفترى كانت المدينة المنورة في وسط الجزيرة، وهي قلب العالم الإسلامي، تصبر على هذه الحركة الثورية؟

إن للمدينة سلطانها الديني والتاريخي الذي تعنو له الجباه. فهنالك أقام النبي وهنالك يثوى جثمانه. وهنالك عاشت الكثرة الغالبة من الصحابة وأمهات المؤمنين تتصدرهن الراوية النابغة عائشة بنت أبي بكر. وهنالك الرواة من هؤلاء والرواة عنهم، يقتفون آثار زعيمي الحجاز عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس. فمن مثل هؤلاء زكانة ومكانة وإلماما بعهد الرسول وغزواته وفعاله وكلماته، وبأحاديث الخلفاء الراشدين والصحابة الأقربين. وأي بلدة طيبة كالمدينة تعيش في أجواء من البركة والكرامة، تضفي على كل شئ فيها فيوضا من التجلة والإكبار.

كانت المدينة كعبة القصاد لمن يشاء أن يتفقه في الدين والتاريخ والتفسير وما إليها، كان عبد الملك بن مروان أحد فقهائها الاثنى عشر المعدودين – بارحها إلى الشام ليكون خليفة المسلمين ومعه زميله في الدرس قبيصة بن ذؤيب ليجعله على خاتمه.

ولما عزم عبد العزيز بن مروان أن يعلم ولده بعث به إلى المدينة ليعود ثاني العمرين اللذين يهز الإسلام بمفاخرهما أعطافه.

وكان في عهد أبي حنيفة إمامها العظيم مالك بن أنس، الذي لا يفتى وهو في المدينة، حفيد أبي عامر الأصبحي صاحب رسول الله، ولم يكن من طراز رجل الكوفة يتصايح التلاميذ من حوله أو يخطئونه وجاها، بل كان رجل تقاليد بحق، يهاب المستفتي أن يسأله أسباب فتواه، ولا يرفع أحد صوته في مجلسه، وبلغت مكانته بالمدينة أن الرشيد زاره لما حج وأن تشاور معه المهدي في سنة ١٦٠ في بناء البيت الحرام، ولما هم أبو جعفر أن يبني البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد إبراهيم شاوره فقال: "أنشدك يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره فتذهب هيبته من قلوب الناس" فصرفه عن رأيه.

وفي سنة ١٧٤ حج الرشيد ومعه أبو يوسف فسمع الموطأ من مالك وتناقش فيه الفقهاء أمامه وقال الرشيد لمالك: ناقش أبا يوسف. فأنف مالك وتنزه عنه، وهو العليم بمكانة أبي يوسف من العلم. بل قال للرشيد: "ها هنا فتيان من قريش من تلامذتنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين!".

كان للمدينة من السلطان الروحي ما عبر عنه مالك لليث بن سعد بقوله: "إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن".

وكانت حضارتها بسيطة غير معقدة ولا مشوبة بتخليط، المشاكل فيها قلائل، والوقائع تتشابه وتتشاكل. فإذا عرضت مسألة فإن لها أشباها في السوابق وحكمها في النصوص. يسيطر على أهلها اعتقادهم أنهم لن يصنعوا خيرا مما صنع آباؤهم لأنهم تابعون وآباؤهم متبوعون، ومن عقيدة التابع أنه ليس كالمتبوع، وأنه لن يكون جيل التابعين ولا أي جيل بعده أو قبله كجيل الصحابة رضوان الله عليهم.

أما الكوفة في ذلك الإقليم من أقصى الجزيرة حيث لم تك مادة الفقه والأحاديث والسنن هي الهواء الذي يتنفس الناس فيه في كل مكان كالمدينة، فإذا أقبل بنوها على العلم أقبلوا في تسامح المحيط الواسع الذي ينادي بالاجتهاد وبالرأي، حيث الناس من كل الأجناس، يقبلون على الدين الجديد تؤنسهم مدنية كبيرة، وتكتنفهم معاملات وتجارات ونوازع شتى وفنون حضارة تحتاج في كل وقت إلى لارأي الجديد، لا تغني عنه النصوص القليلة المتداولة. جاءوا يدلون بدلوهم في الدلاء، يتحرون ويتقرون لم تكد تهدأ رحلتهم بعد، ولم تكن لتهدأ إلا بعد أن تستنفدها شتى ضروب النشاط المادي والفكري أو يعتورها الكلام والهرم.

لقد تلازم الاجتهاد والجهاد في تاريخ الإسلام، وتحالف الركود الفكري والركود العسكري النسبي من ألف عام.

obeikandl.com

قامت مدرسة الكوفة تقول بالخلق والابتكار، واستعصم أبو حنيفة فيها مستمسكا بالرأي وبالتشدد في قبول الأحاديث ورواتها وعارض فقهاء المدينة وأشياعهم. ثم تطاول الخلاف الفقهي فتحول إلى خصام،وأعلنت حرب المذاهب، بين كلمات قارصة كقول القائل: "وضع أبو حنيفة أشياء في العلم، مضغ الماء أحسن منها" ومستشنعات من الألفاظ سنرى أمثالا منها بعد. وغدا فقه العراق هم الحجاز المقيم المعقد..

غرب الوالي إلى عرفات خارج مكة رجلا من السفهاء وحرم على النسا أن نلقاه. فكانت تأتيه على حمير يكترونها على الرغم من أمر الأمير. فجاءوا به فقال له الأمير "أي عدو الله. طردتك من حرم الله فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق". فقال: "أصلح الله الأمير يكذبون علي ويحسدونني". قالوا: "بيننا وبينه واحدة". قال: "ما هي" قالوا: "نجمع حمير المكارين ونرسلها بعرفات. فإن لم تقصد إلى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء، فالقول ما قال". قال الأمير: "إن في هذا لدليلا". وأتى بالحمير. فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله. قال الأمير: ما بعدها شئ جردوه. فلما نظر إلى السياط. قال اضرب فوالله ما في هذا شئ أشد علي من أن يسخر منا أهل العراق فيقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير!! فضحك الأمير وقال: "والله ما أضربك اليوم" وأمر بتخلية سبيله.

وفي أواخر القرن الثاني كان بمصر قاض حنفي هو إسماعيل بن اليسع الكندي يقضي برأي أبي حنيفة في إبطال الوقف فذهب إلهي الليث بن سعد يقول: "جئت مخاصما لك في إبطالك أحباس المسلمين (أوقافهم)". ثم بعث إلى الخليفة يطلب عزله وهو يقول: "إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله ﷺ على أننا ما علمناه في الدرهم والدينار إلا خيرا". وعزل الخليفة قاضيا كل جريرته عند الليث وصحبه أنه كان يذهب في الوقف مذهب أبي حنيفة.

وشارك الشعر بأوزانه في الملحمة. قال شاعر المدينة (عن أصحاب المقاييس وهم الحنفية):

كنا من الدين قبل اليوم في سعة حتى ابتلينا بأصحاب المقاييس

قاموا من السوق إذ قلت مكاسبهم فاستعملوا الرأي عند الفقر والبوس

وكان شرشير المدني يعيب أبا حنيفة. فقال شاعر الكوفة:

عنـدي مسـائل لا شرشـير يعلمهـا عنـد السـؤال ولا أصـحاب شيرشـير

ولا يصـيب فصـوص الحـق يعلمهـا إلا حنيفيـــة كوفيـــة الـــدور

بلـى: كانـت هنـاك حنيفيـة وكوفيـة فـي جانـب ومدنيون فـي الجانـب الآخـر، بـل كـان ثمـة مـدينتان تتباريـان، وإن شـئت فقـل مـدنيتين أو فكـرتين: الجديـدة المسـتوفزة الراغبـة فـي الخلـق والاندفاع، والقديمـة الهادئـة الراغبـة عن الابتداع، وبذلك بدأت المعركـة بين حزب التقليد وحزب الاجتهاد وتأرجح المفكرون بين الآراء، فرأينا رجلا كالنضر بن شميل كان يقدح في أبـي حنيفة في مجلس المأمون بعد أن يمدحه يعود مرة أخرى فيقول: لا ترو عنا كل ما نقول فـي أبـي حنيفة فإنا نقول عند الغضب أشياء ليس لها حقيقة"، وتنصرم الأعوام ويشتد الخصام فيروي الطحاوي – وهو من أئمة الحنفية – أنه كان يذاكر في بعض المسائل أبا عبد الله بن الحسين بن حرب المشهور "بحربويه" قاضي مصر سنة ٣١١ فأجاب حربويه: ما هذا قول أبي حنيفة. فقال: "أيها القاضي أوكلما قال أبو حنيفة أقول؟" قال: "ما ظننتك إلا مقلدا"، فقال الطحاوي: "وهل يقلد إلا عصبي؟" قال: "أو غني"، وطارت الكلمة فصارت مثلا.

ولما قامت مدرسة الشافعي بعد نصف قرن من موت أبي حنيفة، برز خصم شديد، وتطاحنت المذاهب أيما تطاحن، وإذا بملكين: بل والد وولده هما العادل سيف الدين بن أيوب صاحب دمشق يقول لابنه عيسى شرف الدين: "يا بني كيف اتخذت مذهب أبي حنيفة وأهلك كلهم شافعية؟" فيجيبه ابنه قائلا "أترغبون عن أن يكون فيكم رجل مسلم واحد!" وانزلق القوم إلى هوة الحقد فتدهور المبتدعون إلى حيث تعمى القلوب، وإذا برجلين من "الخطابية" يستفتي أحدهما الآخر في أن يشهد على شافعي بالكذب فيفتيه بقوله: ألست تعتقد أن دمه حلال؟ فما دون ذلك دمه فاشهد! وادفع فساده عن المسلمين..!!

وذات يوم أمر قاضي مصر الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبي حنيفة وأصحاب الشافعي جميعا من المسجد.

وفي الأندلس تناظر الحنفية والشافعية يوما بين يدي السلطان فسألهم في بساطة: من أين أبو حنيفة؟ قالوا: من الكوفة. قال: ومن أين مالك؟ قالوا: من المدينة. قال: "عالم دار الهجرة يكفينا" وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة وقال:"لا أحب أن يكون في عملي مذهبان".

وأخيرا ذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض وأنزل الله على قلوب الحزبين سكينة وأمنا فكانت نار الخلاف بردا وسلاما،وغدت وجوه النزاع سباقا لنصرة الدين، وكنوزا فقلبها بين أيدينا لنأخذ منها مثلما نأخذ من وهج الشمس وانحدار الماء واجتماع السالب بالموجب، قوى خالقه جبارة تأتي بالأعاجيب.

روى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق: "اختلاف أصحاب محمد رحمة" ورووا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: "ما سرني باختلاف أصحاب النبي ﷺ حمر النعم"، وأنه قال: "ما سرني أن أصحاب محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة".

ولما قال الرشيد لمالك ليكتب: "الموطأ" ويفرقه في الآفاق. ليحمل الناس عليه كقانون مدون. قال: "يا أمير المؤمنين اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة. كل يتبع ما صح عنده. وكل على هدى. وكل يريد الله تعالى".

وهكذا اختلف الصحابة ولم يتعادوا، واختلف الأئمة ولم يتخاصموا، ولا ينجم العداء الفكري إلا بين الحمقى والمتنطعين: ألا هلك المتنطعون.